منتدى سور الأزبكية

محمد الفيتوري

اللعبة والشاعر

مسرحية معاصرة







اللّعبة والشاعر
(مهزلة معاصرة)



للتأليف والترجمة والنشر

بيروت. لبنان

الطبعة الثالثة 2011

تلفاكس: 009615602752

تلفون: 009613482587

www.dar-alnokhba.com

alnokhba@dar-alnokhba.com

gharid@dar-alnokhba.com

gharid9@hotmail.com

الشخصيات:

نعيم: شاعر ومناضل قديم
شريفة: أخت الشّاعر
عجب: فتاة ليل
أبو الكلّ: صاحب مقهى الحرية
مسعود: صبي المقهى
رفاق سابقون: نجيب، فوّاز، خليل
نكرات: جنود، حراس، أشخاص عاديون
المكان: الوطن العربي
الزمان: 1947 ـ 1982

المشهد الأول

(خشبة المسرح تتكوّن من قسمين: الخلفي منهما يشكل النصف تقريباً، ويرتفع مسافة نسبية عن الجزء الآخر الأمامي، الذي يتدرج منخفضاً إلى مستوى الصالة.

أسوار سجن قديم، تتصدر العمق الداخلي الذي تتوسطه بوابة حديدية، يعلوها برج حراسة وجندي مسلح، يتحرك ببطء مطلا على الممر الجانبي غير المعبَّد، المؤدي إلى الجزء الأمامي من الخشبة.

في واجهة النصف الأمامي، بضعة بيوت متواجهة، مغلقة الأبواب يخترقها شارع رئيسي، عند نهايته في اليسار، عامود كهربائي، خافت الضوء، لافتة (مقهى الحرية) المغلق، تبدو للعيان.

تدخل فتاة الليل عجب.. تصفر بفمها في لامبالاة، تتسكع في الشارع.. تختفي وراء

العامود الكهربائي، حتى لا تكاد تبين..
الوقت قبيل طلوع الفجر..
أشباح لثلاث نسوة قابعات.. تنهض إحداهن من قعدتها تدور دونما اتجاه)

المرأة: المسكين.. لم يعد أحد يتذكّره.. لقد نسيه الجميع كأنّه لم يكن واحداً منهم.. في مثل هذا اليوم كافأوه بالغدر والخيانة.. وفي مثل هذا اليوم منذ عشرة أعوام مضت، وأنا أذهب وأجيء وهو قابع وراء هذه الجدران.. لا يطلّ بوجهه من كُوّةٍ.. ولا يخرج لمقابلة زائر.. ولا يتلقى أية رسالة من صديق، وأنا أذهب وأجيء، وأظل في انتظاره، ثم أعود خائبة.. أتراه يسمعني لو ناديت باسمه.. يا نعيم.. يا نعيم.. (تتلفت) حولها.. لكأنّي جننت.. كيف أنادي مَن لا يسمعني؟ وحتى إذا سمعني فكيف له أن يجيب..ثم من يدريني أنّه سيعرفني، فيما لو وقعت المعجزة، وخرج الآن..عشرة أعوام، داخل زنزانة، ليست بالأمر الهين.. تجربة ما أقساها على إنسان مثله، لم تكن الحياة الطلقة تتسع لآماله وأحلامه.. "لا تنسي يا شريفة، أصغي إلى ما سوف أهمس به، لك وحدك"..

ذات يوم منذ ما قبل عشرة أعوام همس في أذني بتلك الكلِمات.. "لا تنسي يا شريفة أن الشرف عبء ثقيل في هذا العصر.. شرف الإرادة، وشرف المعاملة، وشرف النضال.. ولأن قدرك أنت أن تكوني موسومة باسمك.. تجدينني أبوح لك بمخاوفي.. إنني أشعر، أنني أقف وحدي، على كثرة من حولي من رفاق النضال"..

وسارعت فوضعت يدي على فمه، حتى لا يستطرد.. "لا يا أخي.. إنك لست وحدك".. قلت له، ولمحت دمعة، تنحدر ببطء، حتى لامست شفتيه.. إنك تبكي.. إنّها المرة الأولى، التي أراك فيها تبكي يا نعيم.. لم أكن أعرف أنك ممتلئ بالدموع إلى هذا الحدّ.. وانتزع نفسه مني.. ومضى دون أن يبوح لي بسرّ دمعته حينذاك.. حينذاك كان السرّ.. أما الآن.. فلقد أشعلت الجريمة قنديلها، وانفضح كلُّ شيء.. نعم انفضح كلُّ شيء يا نعيم.. آه.. لو كنت تسمعني الآن، لكنت أخبرتك عما حدث من بعدك.. أو لم أقل لك إنك لستَ وحدك..

ذات ليلة هاجموا بيت عبد الهاشمي، واختطفوه عنوةً.. ومن هناك ألقوا إلينا بالنبأ.. قالوا إنّه انتحر في زنزانته.. هل تصدّق يا نعيم، أن مناضلاً صلباً، مثل الهاشمي يقبل بمثل هذه النهاية المخجلة.. أن يموت منتحراً ومهزوماً وسقيماً كمراهق.. إنك ولا بدّ أن تكون قد عرفت ما الذي حدث له بالداخل.. وعندما طالبناهم بجثته.. قالوا بأنّهم دفنوه حيث مات.

ولا شك أنك لم تسمع بمحاكمة طه عبد الرسول.. المحاكمة المهزلـة يا نعيم.. لم يخجلوا من كبر سنّه.. من طهارة مسلكه.. من خشيته أمام الله.. وهكذا مضوا يلفّقون له التهمة بعد التهمة.. صدّقني كانوا كلّهم شهود زور من حوله.. ولو رأيت شموخه وكبريائه عندما راحوا يضعون حبل المشنقة حول رقبته، لحسدته على كلّ هذا الجلال.. ثم.. ثم انفجرت المدينة كلّها، بأصوات الاحتجاج.. كان الذهول الذي ساد الوجوه، والعيون، والكلّمات، هو وحده قنبلة الرفض والاحتجاج..

وياعيني على العروس التي ساقوها، ليلة زفافها، إلى سراديبهم المظلمة.. والرصاصات الغادرة التي أطلقت على الضابط الضوّ الكردفاني.. أولم أقل لك يا نعيم أنْ لستَ وحدك.. أنت تذكر أنكما تربيتما معاً.. في حلة واحدة.. في وقت واحد.. هو كان يكبرك بقليل.. وافترقتما لتلتقيا في الظلام، بعدما التقيتما في النور (*تتنهنه بما يشبه البكاء*) ولكن لا يا نعيم.. إنّه وقت الأمل و العمل.. وليس وقت الضعف والبكاء.

(تخرج سريعاً، بينما تضاء فجأة بوابة السجن، جلبة وضوضاء في الداخل، سجن وأصوات جنود... ثمّة شيء غير عادي.. تنفتح البوابة.. يزداد الصخب والضوضاء.. أشباح جنود، يتدافعون ويقذفون إلى الخارج بأحد السجناء.. تغلق البوابة.. السجين المطرود، هو الآن مكوّم أمام بوابة السجن.. يحاول الوقوف، بينما احتجاجاته الصاخبة ما تزال.. يتجه في وقفته، غير الكاملة، صوب جمهور الصالة) .

السجين: منظر غريب، يثير الدهشة والتساؤل.. أليس كذلك؟ هل فهمتم شيئاً مما يحدث ؟ لا

تتعبوا أنفسكم في التفكير.. خذوا الأمور، كما تعودتم أن تأخذوها، نكتة تضحككم، وصفعة تبكيكم، وهذا كلّ ما في الأمر.. ليس مطلوباً منكم أكثر من هذا.. مطلوب أن لا تعرفوا أكثر.. إذا تجاوزتم الحدود المسموح بها تقعون في المحظور الذي وقعتُ أنا فيه.. والشاهد ماثل أمامكم ولا يحتاج إلى برهان *(يتلفت يمنة ويسرة)*

اسمي؟ من أنا ؟ اسمي 313.. عقدت قراني ذات يوم، على "فكرة ملعونة".. ذات يوم قبل أن أتخرّج من هذا المعهد العتيق.. قبل أن أتشرّف بالمثول أمامكم.. داخل هذه الجدران... سقف وجدران *(يتطلع إلى أعلى)* تارة يرتفع فهو سماء..وتارة ينخفض فهو سقف.. نفس الشيء *(يدير وجهه في الجدران)* تارة تتسع فهي بلاد، وتارة تضيق فهي زنازين.. لا فرق.. الداخل مثل الخارج..والخارج مثل الداخل.. وهذا هو سبب احتجاجي الآن.. *(يعطي ظهره للجمهور)* أنا أحتجّ أنا أحتجّ.. هل وراء هذه الجدران مَنْ يسمعني ؟.. ما دام الداخل مثل الخارج، والخارج مثل

الداخل، فلماذا تحرمونني من حق الاختيار !!.. *(يستدير فيسقط ضوء العامود الكهربائي، على وجهه.. عمره لا يتجاوز الخامسة والثلاثين.. يرتدي قميصاً وبنطلوناً عتيقاً.. يستمع إلى صرير بوابة السجن.. يلتفت.. أيدي الحرس تقذف بحقيبة ملابسه، وراديو صغير "ترانزيستور" يهرع لالتقاط الحقيبة والراديو.. تضغط أصبعه علي الزر.. ينطلق صوت مذيع، يقرأ تعليقاً سياسياً مكرراً، حول آخر تطورات القضية العربية.. يلقي الراديو من يده، في استفزاز، يعود صوب الجمهور.. تأخذه موجة من الضحكات الهيستيرية.. تبرز عجب من وراء العامود، وهي تتطلع إليه في استغراب.. تصفر بفمها.. يحدق في استرخاء.. يخفت صفيرها شيئاً فشيئاً)* ..

عجب *(لنفسها)*: بشرفي إنّه مجنون.. يشبه كثيرين ألتقي بهم هذه الأيام.. مجانين مع وقف التنفيذ.. لا أخاف منهم، ولا أحقد عليهم.. مرة اشتكى لي أحدهم حاله، فتقطّع قلبي عليه.. كان يبكي على صدري مثل طفل صغير.. حملني همّه.. وأنساني همّي.. ولكن

يا ترى من أي نوع هو ؟

مجنون ليلى، أو مجنون سلطة، أو مجنون مخدرات.. ! *(تضبط حركتها تجاهه)* حلمك يا عجب.. الحلم سيّد الأخلاق.. حلم الأيام الماضية، جنون هذه الأيام *(تقهقه)* الأصحّ هو أنّ الجنون سيّد الأخلاق *(تخاطبه)* أنت يا أستاذ.. يا أستاذ أنا اسمي عجب.. وأنت ما اسمك؟

السجين: نعيم.. أنا نعيم، يا حضرة الآنسة *(لنفسه)* لا بد أنّها من عائلة محترمة، ثم لا يعني خروجها في مثل هذا الوقت من الليل، أن تكون غير ذلك.. ليس من الضروري أن تكون غير ذلك.. *(بصوت مرتفع)* يا بنت الأكابر.. لقد استأنست بصوتك.. أجمل من صفير عصفورة، كنت أتخيلها من بعيد.. لماذا سكتِّ؟

عجب: *(تضحك ساخرة وتقول لنفسها)* : أعتقد أن بإمكانه أن يدفع.. مجنون في اليد، خير من عشرة فوق الشجرة *(تشير بيدها)* هيه.. هل أعجبك.. ما رأيك فيَّ *(تتمشى بدلال)* ولماذا تظلّ هناك..اقترب.. تعال يا نعيم..

نعيم *(لنفسه)*: لعنة الله على سنوات السجن يا نعيم.. الواضح إنّها امرأة تعيسة مثلك.. عاملة في مصنع، أو خادمٍ لا تملك ثمن العودة إلى بيتها.. واجبي أن أتلطّف معها *(بصوت مرتفع)* تعالي أنت معي.. *(مستدركاً)* سأصحبك إلى بيتك.. هذا إذا لم يكنٍ لديك مانع *(تتأهب للصعود إليه فيتابع قائلا)* لحظة من فضلك.. لي شرط واحد، أقوله منذ الآن.. *(تتردد)* إذا جئت معك، أرجو أن لا تتسببي في إحراجي *(تجمّد حركتها)*

عجب *(لنفسها، وقد جمدت حركتها)* : والآن بدأ ت المساومة.. إنّه واحد منهم كما تصورت.. المهم الدفع مقدماً *(تخاطبه)* : لن أبخل عليك بشيء، سأفعل كل ما يمكنني من أجلك *(تضحك)* هل تريد أن أعلمك الشجاعة.. معي أنا لن تخاف.. *(تقف متنهدة)* الصعود غير الهبوط.. انزل أنت..

(نعيم ينزل صامتاً.. فجأة يعلو صوت نفير سيارة.. ترهف عجب سمعها.. تعود أدراجها مسرعة صوب الصوت.. تختفي في الظلام.. نعيم يتابع سيره إلى منتصف الطريق

الخارجي.. يستند إلى حقيبته في إعياء) .

نعيم : الفرصة الوحيدة ضاعت يا نعيم.. لا مفرّ من البقاء حيث أنت.. لن تجد بيتاً يؤويك، ولو لليلة واحدة *(موجهاً حديثه إلى الجمهور)* ولو لليلة واحدة.. كونوا أنتم شهودي.. لا بيت ولا وطن.. لا قلب ولا إنسان.. سقطت كلّ الزهور، وترمّدت أرضُ الحديقة، لا أهل ولا أصدقاء، وطنك الوحيد، هو قدرك الوحيد، هو قدرك الوحيد *(يرخي جسده في مواجهة الصالة)* استرح يا نعيم.. استرح يا رفيق *(يتخذ وضع النائم.. ينطفئ الضوء الكهربائي.. تزداد درجة الظلام.. لحظة ثم تأتي ضجة أصوات، وحركة أقدام القادمين من الخارج، يعتدل في جلسته.. يدخل القادمون.. ثلاثة جنود مسلحون.. أحدهم يحمل ملفاً ووراءه طابور من المحكومين، في طريقهم إلى السجن.. في المؤخرة جنديان آخران.. ينتهز نعيم فرصة مرور الموكب فينسلّ بينهم يستمر الموكب في مسيرته.. يصعدون الطريق المؤدي إلى السجن.. يدق أحد الجنود البوابة بمؤخرة بندقيته.. تمرّ لحظات ثم تنفتح البوابة، تلوح*

أشباح بعض الجنود من الداخل، يقف الجندي حامل الملف جانب البوابة.. يأخذ في قراءة أرقام الدفعة الجديدة) .

الجندي: 625-624-623-622 إلخ...

(مع العد الرقمي، يدخل المحكومون واحداً إثر الآخر.. يطوي الجندي الملفّ.. الآن لم يكن قد بقي في الخارج سوى نعيم، الذي يتقدم إلى بوابة السجن، فيتصدّى له الحارس، يحاول نعيم إزاحته عن طريقه دون جدوى.. تستولي الدهشة على جنود الحراسة.. الجندي حامل الملفّ يبدو عليه الارتباك يفتح الملف ثانيةً، ويعاود قراءة الأرقام.. يتدخل الجنود الباقون، في النزاع الناشب بين نعيم والجندي الحارس، يتغلبون عليه، ويجرونه بعيداً، نعيم في حالة هياج) .

نعيم: أنتم تعمّدتم إضاعةَ رقمي.. كان لي رقم في هذه المجموعة، فلماذا أدخلتموهم.. وتركتموني وحدي في الخارج؟.

(الجندي حامل الملف يقرأ الأرقام بصوت مرتفع.. يلتفت إلى نعيم)

حامل الملف: هل سمعت رقمك أثناء العد؟

جندي ثان: لقد كانوا ثمانية ودخلوا جميعاً.

جندي ثالث: هل أنت متأكد أنك ؟

حامل الملف: بالضبط كانوا ثمانية لا غير *(يعاود القراءة)* 623-622-621-620-619.. إلخ..

الجندي الثاني: العدد مضبوط والأرقام مستوفاة.

الجندي الثالث: شيء غريب... لم أصادف غيرك في حياتي.. إنسان طليق، يصرّ على دخول السجن، رغم أنف السلطات!

نعيم: أرجوكم إذا كنتم قد أضعتم رقمي، فبإمكانكم أن تضعوا رقماً بديلاً، أو على الأقل أضيفوه إلى القائمة..

الجندي الثاني: عشرون سنة، وأنا أسوق المحكومين إلى جميع سجون البلد، ولم يحدث لي أن صادفت مثلك!

نعيم *(لحامل الملف)*: لن يضرّك شيء، إذا أضفته إلى القائمة، اكتب عندك 627.. إنّه مجرد رقم *(مستعطفاً أحد الجنود)* أرجوك.. أقنعْ زميلك.

الجندي الثاني: وكيف الخلاص من هذا المأزق ؟

الجندي الثالث: *(وقد طرأت له فكرة)* : اسمع يا هذا ما اسمك؟

نعيم: 313.. عشر سنوات كاملة، وأنا اسمي 313.
حامل الملف: هذا الرقم لا يوجد عندي..
أنت دسيسة *(لزملائه)* هذا الرجل دسيسة..

الجندي الثاني: ما معنى دسيسة؟ أول مرة أسمع بها.. هل هي مما يُؤكَل؟ أو مما يُشرَب؟

الجندي الثالث: لا هذا ولا ذاك أيّها الجاهل.. هذا الرجل دسيسة يعني أنّه جاسوس.. أو لا تعرف أن الخارج ملآن بالجواسيس..

الجندي الثاني: وعلى من يتجسسون؟

الجندي الثالث: على المساجين بالداخل.

الجندي الثاني: ولحساب مَن؟!

الجندي الثالث: المسألة في منتهى البساطة لحساب من يدفع.

الجندي الثاني: لينقل أخبارهم إلى الخارج؟

نعيم: أنا أعمل لحساب من يدفع.. أليس هذا الاعتراف كافياً لدخولي السجن.. أؤكّد لكم أنني جاسوس، دسيسة.. أعطوني رقمي..

الجندي الثاني: إنّه يعترف على نفسه.

حامل الملف: لسنا قضاة، وليس هذا من شأننا.. نحن جنود حراسة، مهمتنا تنفيذ الأوامر.. وهذا الجاسوس لا وجود له في الملف..

الجندي الثالث: هذا صحيح.. هناك دولة، ونظام.. وقوانين لحماية المساجين، من أمثال هذا الجاسوس.

حامل الملف: ولربما كانت للدولة حكمة خافية علينا، في ترك هذا الجاسوس، يسرح ويمرح في الخارج.

الجندي الثالث: الأفضل أن نتركه وشأنه.

الجندي الثاني: يا أخي من فضلك.. أضعتَ وقتنا، والبوابة كما ترى مغلقة، فاذهب إلى حال سبيلك.

نعيم: لا بدّ أن أدخل السجن.

حامل الملف: ولماذا هذا السجن بالذات، أولا تعرف أن البلد مليئة بالسجون؟

الجندي الثاني: اذهب وابحث لك عن سجن آخر.

الجندي الثالث: على أي حال نحن ذاهبون إلى بيوتنا *(ساخراً)* اذهب أنت أيضاً إلى بيتك، وعد في وقت آخر.. ربما احتجنا لك عند اللزوم.

(يبتعدون ضاحكين، ويحاول اللحاق بهم.. يعود من جديد.. فيطرق بوابة السجن، دون جدوى، يحمل حقيبته محتاراً.. ضوء اليوم الجديد، ينتشر بالتدريج.. تدبّ الحركة في جوانب الشوارع.. نعيم لا يعير اهتماماً لأحد..

تنفتح أبواب مقهى الحرية.. مسعود صبي المقهى يقوم بترتيب المقاعد والطاولات.. أبو الكل صاحب المقهى بالداخل، يدندن بصوت منفر) :

أحب عيشة الحرية
زيّ الطيور فوق الأغصان
ما دام حبايبي حواليه

مسعود: الله.. الله.. يا معلمي.. صوتك أجمل من صوت أم كلثوم.. *(يدندن هو أيضاً، يتداخل صوته مع إيقاعات صوت المعلم)*

الورد جميل.. جميل الورد
الورد جميل.. وليه أوراق

أبو الكلّ *(من الداخل)* :

اشتغل يا ولد.. واترك الغنا لأصحابه..
الزبائن المحترمين في الطريق.. واليوم عيد الاستقلال..

مسعود: لا يا معلم.. اليوم عيد النصر.

أبو الكلّ: نصر أو استقلال.. لا تتدخل فِيما لا يعنيك يا ولد.. قلت لك ألف مرة، لا تتكلم في السياسة.

مسعود *(بفرح مفاجئ جعله يترك ما في يديه، ويقترب من معلمه)* : سياسة؟ هل قلت سياسة يا معلم؟

هل صحيح أني كنت أتكلم في السياسة؟

أبو الكلّ *(مغتاظاً)* : يظهر أن يومك لن يمرّ على خير..

مسعود *(في حالة رضا عن نفسه)*: يا فرحتك يا أم مسعود ابنك راجل سياسي.

أبو الكلّ *(يقذفه بمنفضة سجاير.. تخطئه.. تحدث صوتاً.. يسرع مسعود إلى عمله)* :

أنت هنا صبي مقهى.. لا أكثر ولا أقل.

مسعود *(منهمكاً في عمله)* : حاضر يا معلمي.

أبو الكلّ: من الآن فصاعداً، إذا أردت التكلّم في السياسة، فعليك أن تستقيل من المقهى أولاً.. هنا مقهى الحرية.. وليس مقهى البرلمان..

مسعود: سمعاً وطاعة يا معلم.

أبو الكلّ *(يتقدم باتجاه الراديو المعلّق فوق رفّ بارز يتصدّر المقهى، يدير المؤشر فينطلق صوت المذيع بنفس العبارات والجمل التي سبق أن سمعناها حين أدار نعيم جهاز الترانزيستور)*:

من كان يصدق أننا بلغنا هذه الدرجة من الرقيّ والنباهة.. الله الله.. هكذا هكذا، وإلا فلا، هذا هو الكلام الجدّ.. كلام يهزّ الدنيا.. وبلاغة ترفع الرأس.. يا عيني علينا.. يا ليلي يا عيني على العرب..

(يغني ويرقص.. بينما المذيع يستمر في حديثه المكرّر.. تقع عينا أبو الكل فجأة على نعيم، وهو يقف على باب المقهى.. يساوره الخوف والشك.. يهدأ شيئاً فشيئاً.. يسارع إلى الابتسام.. يوجّه الحديث إليه) :

أهلاً وسهلاً.. يا صباح الخير.. تفضل يا أستاذ كل عيد نصر وأنت بخير.. اللّهم أعده على أمة العرب..

(نعيم يجلس على أحد المقاعد في هدوء)

نعيم: أيّ عيد يا معلم تحتفلون به اليوم ؟ هل اليوم عيد؟

أبو الكلّ: طبعاً يا أستاذ.. اللّهمّ لا تحرمنا من هذه الأيام المباركة.. لقد أصبحت أيامنا كلّها أعياد.. عيد الجلاء، عيد الاستقلال، عيد الحرية، عيد النصر، عيد الأعياد ولا تنسى عيد ميلاد الرئيس، وعيد تولّيه السلطة، وعيد وليّ العهد المحبوب، وعيد العائلة المقدسة *(متردداً في خوف)* والله بيني وبينك.. من كثرة أعيادنا، عجزنا عن التمييز بين عيد الفطر وعيد الضحية.

نعيم: أظنّ أنّ الرئيس سيلقي اليوم، بياناً هاماً، بهذه المناسبة؟

أبو الكلّ: الشعب كله، في انتظار خطبته الشعبية *(يرفع يديه للسماء وعيناه شاخصتان في وجه نعيم)* يا ربّ طوّل لنا أيام حكمه.. رئيس فوق كل الرؤساء.. كلماته حكم مأثورة وألفاظه درر منثورة *(يصمت جهاز الراديو الذي ظل مستمراً طوال حديثه)* يا ولد يا مسعود افتح الراديو.. فأل خير إن شاء الله..

(نعيم يوزع نظراته، بين وجه المعلم وحركة الصّبيّ.. ثلاثة أشخاص يبرزون من منعطف الشارع، في طريقهم إلى المقهى، وهم يتحدّثون في انفعال.. تثبت نظرات نعيم عليهم.. موسيقى عسكرية تنبعث من الراديو، يسترخي متعباً).

أبو الكلّ: قهوة يا أستاذ؟

(يظل ساكتاً)

يا ولد أحضر للأستاذ، فنجان قهوة سادة *(صائحاً وهو يبتعد عنه، بابتسامة عريضة، تستقبل الثلاثة القادمين).*

أسرع يا مسعود.. الأستاذ مستعجل *(للقادمين)* صباح الخير، يا أصحاب السعادة.

الثلاثة: صباح الخير.

أبو الكلّ: تفضلوا *(صائحاً)* ثلاثة بامتياز يا ولد.

مسعود *(من الداخل)* : حاضر.. على عيني..

(القادمون هم المحامي نجيب العلايلي في الثانية والثلاثين، والصحفي فوّاز صعب، في الأربعين، والضابط المتقاعد خليل أبو سلوم تجاوز الأربعين بقليل) .

نجيب: مع احترامي، للمارش العسكري، أرجو إغلاق الراديو.

فوّاز: أخفض الصوت قليلاً، يا معلم أبو الكلّ.

خليل: هل هو مارش عسكري أو نشيد جنائزي ؟

فوّاز: هناك بعض أوجه الشبه بين المعزوفتين.

نجيب: واقعنا الاجتماعي، هو موضوع النقاش، وليست أشكال الموسيقى الوطنية.

أبو الكلّ: اخفض الصوت يا ولد.. الأساتذة في اجتماع غير عادي..

فوّاز: لا داعي للمبالغة يا أبو الكلّ *(ينخفض صوت الراديو)*

خليل: الأفضل إغلاقه نهائياً إلى أن ينتهي برنامج الموسيقى..

أبو الكلّ: أقفل الراديو يا ولد.

(يسكت الصوت تماماً.. الصّبيّ مسعود

يخرج حاملاً صينية، فوقها فنجان قهوة، يضعه أمام نعيم الذي يبتسم بطيبة في وجه الصّبيّ..الثلاثة الجالسون منهمكون في حديث هامس.. نعيم يرفع فنجان القهوة، ثم يضعه على الطاولة، دون أن تلامسه شفتاه.. يقف محتاراً يدخل يديه في جيبي بنطاله، ثم يخرجهما فارغتين.. يعود إلى مقعده بفضول خفيّ، يتطلّع في وجوه الثلاثة.. لا يعيرونه اهتماماً أصواتهم ترتفع بالتدريج) .

فوّاز: هذه نقطة جوهرية، وينبغي أخذها بعين الاعتبار.

نجيب: بالعكس.. المسألة على غير هذا النحو.. وعلى كلٍّ فإنّ الديمقراطية تستوجب امتزاج مختلف الاتجاهات.

خليل: إذا كانت الرجعية، تعني الأصالة، فأنا رجعي..

فوّاز: للمرة الثانية، سأشرح وجهة نظري.

نجيب: دائماً شعارك الرفض المطلق، وتحليلي لطبيعتك أنك تخشى الهزيمة.

خليل: ليس من الضروري أن تستند الهزيمة إلى ضعف المهزوم (بانفعال) وأنا مصرّ على رأيي السابق.

فوّاز: سوف تغيّر رأيك، إذا تأمّلتها من الجانب الآخر.

خليل: وحياتك.. كلّ الطرق تؤدّي إلى روما التي

احترقت منذ زمن بعيد.

نجيب: روما لم تحترق.. الحريق إشاعة روّجها أعداء نيرون حتى يدخلوه التاريخ، في ثوب القائد المجنون.

فوّاز: مجنونٍ أو عاقل هذه أزمته الذاتية.

نجيب *(مقاطعاً)* :

المشكلة تمسّ أسرار العقل العربي.. تمسّ الطبيعة الجغرافية وعملية التركيب الفسيولوجية!

خليل: العقل!! أيّ عقل لم يزد عن كونه مجرّد وعاء للطاقة.. مجرد جهاز استقبال وإرسال.. ومن ثمّ هناك عقل دودة وعقل امرأة وعقل لبؤة شرسة وعقلٍ دجاجة.

فوّاز: انحرفت بعيداً، يا سيد خليل.. اسمح لي أن أخالفك الرأي.. العقل العربي أرقى من هذا بكثير.. إن تاريخه الطويل أثبت فعاليته وتفاعله وانفعاله.. وهذا ما رمى إليه صديقنا المحامي نجيب *(يتطلع نحوه بإعجاب كاذب)* أو ليس هذا هو رأيك؟

(نعيم يحرك رأسه متظاهراً بالنوم، الصّبيّ مسعود يخرج حاملاً صينية فوقها ثلاثة

فناجين قهوة يضعها على الطاولة في هدوء.. يلاحظ استغراق نعيم في النوم.. يرفع فنجان القهوة الموضوع أمامه ويختلس منه رشفة، ثم يعيده ثانية.. الثلاثة يعودون إلى الحديث همساً.. تظهر فتاة الليل عجب، قادمة من منعطف الشارع، يحدّق فيها الصّبيّ ببلاهة، يستحثّه المعلم أبو الكلّ فيسرع داخلا .. يفتح نعيم عينيه، فيرى عجب مارّة بقربه.. تتشابك نظراتهما دون اهتمام، تعلو أصوات الثلاثـة)

خليل: مهما يكن، لا يجب تجاهل دور الشعب، في تحطيم إرادة العدو، إن هذا الاستقلال ثمرة جهودنا المشتركة، جهودنا جميعاً، الآباء والأبناء والأموات والأحياء.. الجماهير الكادحة والزعيم القائد.. تصوّروا لو لم يكن الزعيم على رأس هذه الأمة، هو بالذات، وليس أيّ زعيم آخر..

فوّاز: لنعدْ إلى جوهر المناقشة، إلى قضيّتنا المركزية، وأين هي اليوم؟ والسؤال المُلحّ، هو ماذا بقي منها حتى اليوم؟

خليل: إذا أردت الإشارة إلى الانقسامات الطائفية فهي قائمة باستمرار.

فوّاز: الانقسامات سبب ونتيجة في نفس الوقت.

نجيب: عدنا إلى حوار العموميات..

فوّاز *(منفعلاً)* : أتجادلني في كون الصهيونية، عدونا القومي؟

نجيب: الصهيونية هي الأم الحقيقية للوبي اليهودي وليس العكس.

فوّاز: يهود اللوبي غير يهود الدولة، وليس العكس.

فوّاز: من الخطأ التمييز بين إمبريالية وإمبريالية.

خليل: ومن الإجحاف تبرئة هرتزلٍ وإدانة جولدا مائير..

فوّاز: ليس لمجرد كونه يهودياً، هاجم شكسبير شخصية المرابي شيلوك، وليس لمجرد كون اليهود يهوداً، عملت النازية على سحقهم من الوجود.

نجيب: قناعتي أن المسألة في حقيقتها دعاية في دعاية.. أقسم أن الاضطهاد النازي وأفران الغاز واحدة من أساطير اليهود، يريدون من ورائها استغلال عطف العالم.

(تقترب عجب.. يستديرون نحوها)

عجب: تمام التمام يا حضرات المحترمين..

ما دمتم تتناقشون فالدنيا بخير وكل شيء على ما يرام.. أراهن أنكم لم تغادروا أماكنكم

منذ ليلة الأمس *(تقهقه بسخرية وتمضي في طريقها)*

فوَاز *(يتابعها بنظراته)* :

صباح الخير يا ست عجب.. قليلاً من الذوق، يا ست الذوق..

(عجب تختفي عند نهاية الشارع)

خليل: يحيّرني أمر هذه المرأة، كل يوم في نفس الوقت، تمرّ بنا و تبصق في وجوهنا نفس الكلِمات.. لولا جمالها وخفّة روحها، لكان لي معها شأن آخر.

نجيب: جمال لئيم ولسان يقطر سخرية.

فوَاز: من يصدّق يا جماعة.. عجب الجاهلة، تسخر منّا نحن، من طليعة وطنية تتميز بالشرف والثقافة!!

(نعيم يضحك فجأة، يلتفتون جميعاً نحوه مستغربين.. يلوذ بالهدوء)

فوَاز: لماذا يضحك هذا الرجل؟

خليل: منذ متى وهو هنا، هل كان موجوداً، إنّني لم أره من قبل.

نجيب: هيئته ليست مريحة *(موجهاً إليه الحديث)* من أين أنت يا حضرة؟

(يظل نعيم في سكونه) لا تتظاهر بالغباء، أنت يا حضرة، يا معلم.

أبو الكلّ *(يهرول من الداخل)*:

هل تريدون شيئاً.. نعم يا حضرات الأساتذة.

نجيب: كنا نتحدث عن هذا الشخص، هل سبق لك أن رأيته هل تعرفه؟

(ينحني عليه متأملاً.. نعيم يحتفظ بسكونه.. عيناه لا تطرفان ووجهه هادئ كأنّه في حلم عميق).

أبو الكلّ *(ما زال يتأمل)*:

لا يمكن.. لا يمكن أبداً أن تكون ذاكرتي قد ضعفت إلى هذا الحدّ.. إنّه يشبه شخصاً كنت أعرفه حقّ المعرفة منذ كم سنة.. يا ربي ساعدني *(الفوّاز)* ساعدني لكي أتذكر، بكل تأكيد هذا الشخص رأيته من قبل.

خليل: ليس نائماً إنّه يتظاهر بالنوم.

نجيب *(للمعلم)* : من واجبك إيقاظه، أيقظه يا معلم..

خليل: إنّه صاح.. فقط يتناوم.

فوّاز: منذ برهة، كان يضحك يعني كان يقظان.. وهو الآن لا يجيب ولا يتحرك يعني أنّه نائم.

أبو الكلّ: كيف يكون المرء نائماً ومستيقظاً في الوقت ذاته؟

(يحاول أن يتذكر)

سنين كثيرة مرّت، هذه التجاعيد جديدة على وجهه واللون محروق أكثر، تعب العمر وتعب المجهول، اسمه على لساني..نبيل ؟ لا كريم؟ لا اسمه على هذا الوزن.

خليل: *(يقاطع تأملاته)*

اتركه لي، أنا أتولى أمره.

(ينهض بانفعال.. تظهر عجب من منعطف الشارع وتسبقها ضحكاتها تصوّب الأنظار نحوها)

أبو الكلّ: عجب رجعت.. امرأة ذكية صنعتها الرجال.. اسألوها فهي أدرى لا بد أنّها تعرف *(تقترب)* تعالي يا ست عجب.. هل تذكرين صاحب هذا الوجه؟

(تلقي نظرة سريعة)

عجب *(إلى أبو الكلّ)* :

لا هم أغبياء ولا أنت يا معلم.. تغابيكم لا يدهشني ولا يقنعني، أنتم جعلتم منه شغلكم الشاغل.. حاولوا تتذكروه.. *(بهدوء خبيث)* ومن أين لي أن أعرفه؟

(تتمايل في مشيتها وهي ترمقهم واحداً واحداً)

إنّه ليس غنياً مثلك يا فوّاز بك.. وليس جميلاً مثل الأستاذ الكبير نجيب.. ولا هو خطير الشأن مثل القومندان خليل.. قولوا لي من فضلكم كيف أتنازل وأعرفه ؟

(تلقي نظرة متفحّصة على نعيم) واحد من الناس الواقفين على أبوابكم.. غريب ومسكين.. لغز وعليكم أنتم أن تحلوه..

(تضحك ساخرة وتمضي.. نعيم يفتح عينيه، ويتابعها بنظراته حتى تغيب وراء المنعطف.. الثلاثة يستمرون في وقفتهم، وهم يحدّقون فيه، نعيم ينقل نظراته فيما بينهم ببطء، وهم يتراجعون إلى الوراء، يخطو ناحية خليل الذي ينكمش مذعوراً) .

نعيم: هل تريد أن تعرف من أنا؟ لا بأس.. لكن عليك أن تعرف مني أنا أولاً، من أنت؟ يا خليل أبو سلوم، المناضل الذي علّق رُفَقَاءه في أنياب السلطة ثمناً لوظيفة ضعيفة وحفنة من النقود

(تسمع هتافات مدوية من بعيد لمظاهرة قادمة.. يتوقف نعيم تقترب المظاهرة) .

(هتافات مختلطة: عاش قائد الأمة العربية. عاش رمز النصر والحرية. عاش القائد. عاش..

عاش..

تمرّ المظاهرة)

أبو الكلّ *(من خارج المقهى بانفعال كاذب)*: الحمد لله.. عشنا وشفنا.. شفنا يوم النصر

والعريس والعروسة في القصر

(أصداء الجماهير بعيداً)

عاش الحاكم شخصياً

عاش..عاش.

نعيم *(مواصلاً حديثه)* : تريدني أن أكمل يا أبا سلومٍ! دعني أولاً أتأمّل صورة النسر الذهبيّ المحلق على كتفيك، والنجوم اللامعة بأناقة بالغة... وهذه النياشين العظيمة المثبتة على صدرك.. طابور من الانتصارات والتضحيات والبطولات التاريخية المجيدة *(كأنما يزداد خليل انكماشاً)* لاتخجل.. أنت بالفعل جدير برعاية رؤسائك وثقتهم فيك.. كفاءة عالية وتفانٍ إلى أقصى الحدود.. وأنا واحد ممن يشهدون بذلك *(خليل يوشك على الانفجار)* لاتغضب.. لا تفقد أعصابك يا قومندان.. كل شيء في مقابلٍ كل شيء.. النجوم، والنسر الذهبيّ المحلق.. وصفوف النياشين.. وواجبك أدّيته

على خير وجه.. العدالة لا تغير موازينها.. وكل شيء ثمن لكل شيء. *(المظاهرة من بعيد.. والهتافات السابقة..ويتابع نعيم موجّهاً الحديث إلى المعلّم)* أوليس كذلك يامعلّم أبو الكلّ، *(خليل يهمّ بالمسير)* لا يا أبو سلوم.. ليس هذا وقت الذهاب. ابق في مكانك.. ألا تشتهي أن تسمع رأيي في صديقنا المحامي الكبير *(يومىء إلى نجيب الذي سقط منظاره ساعتئذ ويحاول تثبيته ثانية)* عفواً يا أستاذ نجيب.. يا سيادة وزير العدل القادم.. هذا النبأ الجديد على زميليك.. ولكنه ليس جديداً عليك.. أنت تعرف أنّ صاحب السلطة المطلقة راض عنك تمام الرضا، وأنه لمّح إلى كبير أعوانه بذلك.. مطلوب محام ضليع، لسانه في خدمة الشعب وقلبه في خدمة السلطة.. مطلوب رجل موثوق فيه من كلا الجانبين، من القصر والشارع.. رجل بوجهين وثلاث عيون، وأربع أرجل.

(المعلم أبو الكل يتأمّل المحامي مدهوشاً، وصبي المقهى في الداخل.. وصوت المومس، عجب، يأتي ضاحكاً من بعيد.. يصرخ المحامي نجيب مستنكراً) :لا.. لا..

هذا غير محتمل..

خليل: الحساب عندي يامعلم. يجب أن نترك المقهى ونذهب. *(يقفون في مواجهة نعيم)*

أبو الكل *(مقترباً من نعيم وقد أفاق من دهشته)*: اسمع يا سيد *(متردداً)* والله اسمك على لساني.. اسمك ر..ر..ر.. ياسلام على ضعف الذاكرة.. *(موجّهاً الحديث إلى الصالة)* اضبطوا أعصابكم يا حضرات.. هذا الوجه ليس غريباً علينا.. إنه الآن يلوح في مرآة كل منكم.. واسمه على ألسنتكم جميعاً. *(ينظر إلى فوّاز الذي يهزّ كتفيه ويخاطبه)* لماذا أنت ساكت ؟! لا تعذّب نفسك وتعذّبنا معك.. انطق به يا أستاذ فوّاز.

نعيم *(كأنه يخاطب مخلوقات غير مرئية يخطو بعيداً، عن فوّاز الذي يحاول اللحاق به)*:
أنصحكم ألا تجهدوا أنفسكم أكثر.. ادّخروا بقاياكم للأيّام السوداء، إنني أعرف ماذا غيّروا فيكم.. وأعرف أنّي مثلكم قد تغيرت.
إنّهم في الداخل *(يشير إلى اسوار السجن)* ليس لهم عمل إلا في الإنسان.. تفكيك عناصره الأساسية، وإعادة تركيبها من جديد..

تشكيل أحلامه وإمكانياته وحقيقته *(صمت متوتر)*.

وفي الخارج أيضاً هم قادرون على تطبيعه.. بلى.. بلى، إنّه مصطلح علمي دقيق تماماً، وطبق الأصل حيثما يحدث استلاب جوهر الإرادة في الإنسان، فهو مخلوق صناعي مشوّه، كمبيوتر مشحون بالأرقام والمعلومات أداة طيّعة حتى الغباء منفذه حتى الموت، أداة لها صورة الكائن المنقرض الذي كان اسمه الإنسان..

(يكمل نصف دورته، حتى يصبح جانبه الأيسر، في مواجهة جمهور الصالة)

هل ترون تلك الأسوار الحجرية، السوداء العالية المخيفة التي يلفّها هذا الإعصار الهائل من الرهبة والسكون.. إياكم أن تصدّقوا أنّها ساكنة.. إنّ داخل كلّ حجر من أحجارها روحاً بشرية ترتجف.. تخاف وترتجف تحقد وترتجف.. تتعذّب وترتجف *(صمت متشنّج)*.

قبضات حديدية، وجنازير من نار.. وأقنعة مطاطية بلون الرعب، بلون الدم وخوازيق مدببّة وكعوب بنادق وأحذية وكلاب ومخالب

معقوفة، وسلالم تهبط، وتهبط إلى الأزمنة البدائية السحيقة التي لم يكن يتواجد فيها إلا روح الله.

(يبكي) يا إلهي، لشدّ ما يعاني الإنسان، في اجتياز هذا العصر الحجري الفظيع!

(تظلم مقدّمة المسرح، حيث يختفي نعيم والثلاثة الواقفون وصاحب المقهى، ويسيل ضوء أحمر على بوابة السجن، أصوات أنين من الداخل، صرير البوابة، يبدو شبح السجين نعيم، عارياً ومشدوداً إلى آلة تعذيب..أذرعة ووجوه الحراس، تتسارع وتتداخل، لبضع لحظات، بينما نعيم يتلوّى ويئنّ.. يسحب الضوء بطيئاً عن مقدمة المسرح.. يتلاشى الضوء الأحمر.. تقفل البوابة.. نعيم يواصل حركته، متحدثاً إلى فوّاز) :

مثل هذه التجربة لا تخطر على بالك، يا رفيق الدراسة ورفيق النضال!!

فوّاز *(صارخاً)*: نعيم ؟ الرفيق الشّاعر نعيم؟

«ستار»

المشهد الثاني

(مازال نعيم يقف قبالة فوّاز، يقول)

نعيم: حتى ولو ظللت تحدّق في وجهي وصوتي مليون سنة لم تكن لتعرفني.

فوّاز *(كمن يتذكر)*: كنا معاً ذات مساء وفي الصباح ظننت أن قيادة الحزب قد أوفدتك في مهمة سرية.. وطالت مدة غيابك واختفيت وانقطعت أخبارك يا نعيم.. وحين مضى الشهر الثاني قالوا لعلك سئمت من النضال فأَثرت الاختفاء..

وعند الشهر الرابع، جاء من يقول إنّه شاهدك تدلف إلى أحد مراقص باريس الليلية.. وفي الشهر السابع، تناهشت سمعتك الشائعات.. ثم نسيناك تماماً.. الآن فقط، أدركت أين كنت مختفياً طوال السنوات العشر..

لقد ألقوا القبض بعد غيابك، على الرفقاء

المدرّس أمين القلعي، والمهندس ياسر أبو سيف، والخياطة ليلى الشماع.. حدث ذلك ليلة زفافها، أما رفيقنا المطبعي العجوز أنيس الحداد، فقد دهسته سيارة مجهولة، بينما كان يعبر شارع القدس، ذات مساء، وفي المستشفى أجروا له عملية بتر الساقين.. ثم هل تتذكر الدكتور زاهر المصري.. لقد أطلق العنان للحيته، وانضمّ إلى إحدى الطرق الصوفية.. إذا كنت مشتاقاً إلى رؤيته فاذهب إلى زاوية الشيخ الشاذلي الواقعة عند منحنى هذا الشارع تجده كومة من عظام داخل عباءته المرقّعة.

(ضحكات عجب من وراء الستار، مختلطة بدويّ محرك سيارة.. صوته يأتي في وضوح)

عجب: باي.. باي شيري إلى اللقاء..

(تستدير وجوه القومندان والمحامي والمعلم دفعة واحدة ناحية الصوت.. لا تظهر عجب.. فوّاز يربت بإشفاق على ظهر نعيم)

فوّاز: تعذّبت كثيراً.. صوتك مثقل بآلام السنوات العشر.. وجهك كتاب مفتوح، لا أقوى على قراءة أسراره وخفاياه، زهرة الحياة في السجن،

في المجهول الذي لا يدرك مداه غيرك أنت..
لا تشح بوجهك عني.. لا تحاصرني باتّهامك..
لا تحتقرني يا نعيم.. إنني لم أبع نفسي، هم الذين باعوني.. القلم الذي أكتب به في الصحيفة، لم يزل قلمي.. وأنا لم أغدر بك..

نعيم *(كالحالم)*: كل إنسان له ثمنه.. ولقد تقاضيت ثمنك..

خليل *(بانزعاج)*: الحساب عندي يا معلم يخرج مسرعاً.

نجيب *(بنبرة خطابية مفتعلة)*:
الحمد لله على السلامة يا سيد نعيم.. لا تؤاخذني يا سيد فوّاز *(يخرج مضطرباً.. المعلم أبو الكل يصفّق بيديه مطالباً صبي المقهى، بإغلاقها، نعيم وفوّاز يسيران جنباً لجنب، وكأنما يتعاتبان)*

المعلم *(للصبي)*:
تعال اجمع الكراسي و الطاولات.. وأغلق باب المقهى..

الصَبيّ *(يخرج محدقاً في ضوء النهار باستغراب)*:
هل هذا معقول؟ ماذا يحدث يا معلم، لم أفهم أي شيء!

المعلم: قلت لك أغلق المقهى.

الصَبيّ: وحياتك لم أفهم.. كلمني بالعربي الفصيح.

المعلم *(مغتاظاً.. وبلهجة ملحونة)*:

تلك هي المرة الأخيرة.. سريعاًوبسرعة أغلق المقهى.. هل اقتنعت يا ابن الغجرية.

(يختطف أحد المقاعد، ويركض وراءه صارخاً.. يتفاداه الصَبيّ.. يختفيان.. نعيم وفوّاز يتابعان حديثهما السري متشاغلين عما يجرى حولهما.. الحوار مسموع الآن)

نعيم: هذا هو قراري النهائي.

فوّاز: هل في رصيدك عشرة أعوام أخرى، تنفقها في ظلام الزنازين؟

نعيم: لا بدّ لواحد منا.. لواحد على الأقل أن يعلو فوق خيبة هذا الجيل.. وأنا أريد أن أكون هذا الواحد. ومن أجل ذلك، دائماً سأعرض رأسي في المزاد.. وسأرفع إصبعي صارخاً في وجوههم.. لا.. لا.. لا..

فوّاز: الشوارع طافحة بالأوساخ.. وأنت كالذي يحاول أن يكنس المدينة وحده.. وما عاد الرفاق هم الرفاق.. لعلك تصفني في سرّك الآن، بالبائس والمهزوم.. وأنا لا أعفي نفسي

من وطأة هذا الإحساس.

نعيم: وحده اعترافك هو شهادة البراءة.

فوّاز: من قديم، كنا على طرفي نقيض أنا واقعي متشائم، وأنت خيالي متفائل..

نعيم *(يناجي نفسه)*:

ربّما كان على حقّ.. تنابلة ملء التكايا، وخصيان يحملون المباخر.. وقرون الغيلان الحمر تسدّ الطرقات.. وجوف المستنقع العربي، يشهق بكل ما فيه *(يتابع بدرجة صوت أعلى كأنه يخاطب نفسه)*.

هذا أنت، وهؤلاء هم.. سور دائري، ومتفرّجون.. وفي الساحة الثور الأسباني وحده.. أنت هو الثور في الساحة.. الثور يخور محتجاً على القتلة.. وأنت أيّها الشّاعر تحاربهم بالقصائد.. كيف آمنت إلى هذا الحد بجدوى الأغنية؟

فوّاز: في أقصى درجات غرورك.. هل ظننت لقصائدك، قدرة تفوق قدرة الشعر؟

نعيم: فقط أن تكون وثائق إدانة.. لا تتكامل قدرة التغيير إلا عند الله والإنسان.. حَسْبُ كلّ منّا أن يبقى في موقعه *(صمت عميق)* لم آسف

على شيء فاتني.. لم تزل لديّ القدرة على رؤية جمال المستقبل.. ألم تسأل نفسك كيف يجد الخائن الجرأة على ممارسة الخيانة (بمرارة) الذين جرّوا حصان طرواده إلى داخل طرواده كانوا أشخاص إلهيين ومقدسين، ثم اجتيحوا عندما اجتاحتها جيوش الأعداء، ولم يحدث أن عادوا على أشلاء المعركة..

فوّاز: حدّثني عن نفسك.

نعيم: لم أكن بريئاً تماماً.. كان ثمة ما يستوجب العقاب.

فوّاز: هل ضبطوك وأنت توزّع بعض المنشورات؟

نعيم: لا.. ضبطوني وأنا ألقي بعض القصائد..

(ضحكات المومس عجب، من وراء الستار.. الاثنان يلتفتان.. تبدو قادمة)

فوّاز: إنّها عجب.. فتاة لعوب مثل اسمها..

نعيم: ليلة البارحة لم أتعرّف عليها.. مسكينة، كانت أحقّ بمصير أفضل.. إنّهم هم الذين يسممون الأزهار البريئة.. الأطفال الذين كانوا سيصبحون رجالاً.. والصَبيّات اللواتي هنّ أمهات الغد.. لا جريمة من دون فاعل.. ولا ثمرة بدون بذرة..

(تقترب عجب)

عجب: جميع سكان المدينة، تجمّعوا هنالك بالقرب من الجسر.. لم يبق غيركما أنتما الاثنان.. أنت يا فوّاز.. وهذا الغريب *(تدور حوله وهي تتفحصه)* ألست أنت رجل الأمس ؟ هل ما زلت ترغب في مرافقتي *(تحدّق بدقّة)* تشبه شخصاً كنت أعرفه.. لا بل كأنك هو، إنك هو، هل أنت نعيم ؟

نعيم: حين لقيتك أمس كنت بحاجة إلى مأوى، كنت خارجاً لتوّي من السجن.. حتى أنت أرغموك على دفع الثمن؟

عجب *(بأسى وتأثر)*:

أشباح عشرة أعوام خيّمت على وجهك أنت الشاب العجوز في الثلاثين.

نعيم: أعرف ما صيّروني إليه.

عجب: وصيّروني كما ترى *(تجهش باكية)* صنعوا دماري وصيّروني، كما ترى!

نعيم: لا جدوى من البكاء.. لا ألومك على شيء.

عجب: قل إنّني لا أستحق حتى كراهيتك.

نعيم: هنالك مَنْ هم أولى بما هو فوق الكراهية.

فوّاز: الماضي لا يعود يا عجب *(لنعيم)*

ماذا قررت أن تفعل؟

عجب: *(وهي تنصرف)*

إذا شعرت بالحاجة إليّ. فإنني أقيم وراء المقهى.

(تجر قدميها بحزن وتغيب جهة اليمين...
فوّاز ونعيم يخرجان من الجهة اليسرى)

المشهد الثالث

(يُسمع دويّ انفجار.. حشود صاخبة تتدفق من جانبي المسرح، في اضطراب وذعر، راكضة في الاتجاه المضاد، البعض يحمل رايات ملوّنة أو لافتات مكتوبة. تارة يجرونها أو تسقط من أيديهم أو يدوسون عليها، ثم تخلو خشبة المسرح من الجميع.. يدخل من اليمين، صاحب المقهى، وهو يتلصص خشية من الجمهور).

أبو الكلّ: فشلت المؤامرة، والحمد لله على نجاته *(مخاطباً الصالة)* أوشكوا أن يقتلوا الحاكم.. انفجرت القنبلة على بعد ثلاثة أمتار من سيارته.. *(يدخل جندي من الجانب المقابل مهرولاً يكاد يصطدم بالمعلم)* نشكر الله على سلامته.. ماذا كان يحدث لولا رعاية الله.. *(يخرج من الجانب الآخر.. يدخل القومندان خليل من نفس الجانب، في عصبية)*

خليل: هو بكلّ تأكيد رأس المؤامرة.. لا بدّ أنّه هو.. على الأقل الحادثة من تدبيره..

(يخرج، من الجانب الآخر يدخل نعيم وفوّاز)

فوّاز: سوف يلصقونها بك.. من الحكمة أن تتوارى عن الأنظار.. ولكنهم سوف يوقعون بك على أيّ حال.

نعيم: هل ستكون شاهدي ؟

فوّاز: وما نفعها إذا كان لا بدّ لهم من كبش فداء ؟

نعيم *(بتفكير عميق)*:

هل تعتقد أنّهم أخرجوني من السجن، لكي أؤدي لهم هذا الدور؟ هل كان قرار العفو عني، جزءاً مكمّلاً في قواعد اللعبة؟ ولماذا ليس أنت مثلاً يا فوّاز ؟ لماذا أنا بالذات؟

فوّاز: خلال العشر سنوات الأخيرة سقط الكثيرون من الرفقاء وسقطت أنا أيضاً في اللعبة، قبلت مبدأ المساومة، لم أقطع الشوط إلى آخره.. إنما كانت الخطوة الواحدة كافية، فالمهمّ هو القبول بالرضوخ.. الشخص الذي عجزوا عن ترويضه هو أنت يا نعيم.. أنت إذن هو الرجل المطلوب..

(يتشبث به متوسلاً)

لا تدعهم يعتقلونك.. أتوسّل إليك أن تهرب..
اهرب.. اهرب يا نعيم..

(للحظات يسود الظلام خشبة المسرح.. تتحرك بقعة من الضوء، ثم تكبر شيئاً فشيئاً.. نشاهد جنديين ملثّمين، يدخلان من اليمين، ثم يأخذان موقعهما، قرب المدخل.. فوّاز يقف في إحدى الزوايا كتمثال.. نعيم في الوسط، وعيناه على الصالة)

نعيم: كلّ شيء مرسوم بدقة، كلّ خطة موضوعة بعناية.. كل جريمة تقع تحت سمعكم وبصركم *(صمت)* لم يعد من حق أحد ادّعاء عدم المعرفة، ما حدث بالأمس، وما يحدث اليوم، وما سيحدث غداً.. لا عمًى يبرّر سكوتكم ولا غباء. *(صمت)* الجريمة ساطعة مثل الشمس.. الجريمة تَتِمُّ والشّهود حاضرون.. وهذا هو القانون القديم الذي التزمه المجرمون الكبار، منذ مئات السنين.. أن يسرقوا، ويقتلوا، ويغتصبوا، ويزيّفوا ويتقاضوا ثمن خياناتهم في وضح النهار *(مشيراً إلى أشخاص ضمن جمهور الصالة)* معذرة.. إني أعتذر اليكم أنتم، فلا شكّ أن بينكم بعض المجرمين

الصغار، الذين لا أعنيهم.. وأنا أكرّر اعتذاري لهم، وأحترم ظروفهم الخاصة، التي تضطرهم لارتكاب جرائمهم في منتصف الليل.

عجب *(من وسط الجمهور)* :
اعتذارك في غير محلّه يا أستاذ.

نعيم: لم أكن أعنيكِ يا عجب *(للجمهور)* أنا أعني بالمجرمين الصغار، السادة لصوص البنوك، والقتلة المأجورين، ومزيفي العملات النقدية، وسماسرة السوق السوداء، وتجّار المبادئ والأسلحة وغيرهم من ذوي المشاعر اليابسة، وأنصاف الموهوبين، إن ثمة مجرمين كباراً، يقطعون بأسنانهم، الخيوط الدقيقة في نسيج هذه الأرض، وأولئك هم الذين أعنيهم بهذه الكلِمات.

(الجنديان الملثمان يتقدمان نحوه، ويجذبانه من كتفيه بصلف وقسوة)

الجنديان *(معاً)*: نحن بانتظارك.. لا تضيّع وقتنا..

شريفه *(من وسط الجمهور)*:
أبعدا أيديكما القذرة عنه.. لقد أسقطتم من حياته، عشر سنين.. ماذا تريدون منه بعد؟

فوّاز *(لأحد الجنديين)*: إنّه لم يقل شيئاً لا نعرفه

عنكم. أيها الحاكم الملثّم، لو رفعت القناع عن وجهك ولو للحظة واحدة، فستعرف كيف نتفاهم معك!

شريفه: بالأمس فقط أخرجوه من السجن ومنذ قليل شاهدناه في المقهى، كان حزيناً ووحيداً وبدون أصدقاء.. الكلاب لم يعطوه الوقت، حتى لالتقاط أنفاسه..

خليل *(لاهثاً يدخل من جهة اليمين)* :

إذا لم يكن هو الفاعل، فإنّه على علاقة بمرتكبي الجريمة.

شريفه: اخرس.. نحن كلنا شهود على براءته.

خليل: اخرسي انت.. شهادتك مجروحة *(بسخرية)* القانون لا يأخذ بشهادة أمثالك لأنك أخته.

فوّاز: قلت له، ولكنه لم يصدّقني.. قلت له ستكون كبش المحرقة..

أبو الكلّ: تتحدثون عن العدالة والحرية.. وعن حقوق المواطن والديموقراطية هكذا تقولون في صحفكم وإذاعاتكم..

الجمهور: اتركوه يتكلم.. اتركوه يدافع عن نفسه.

الجندي *(يتبادل بعض كلمات مع زميله)* :

اطمئنوا.. إن المتهم الآن في حماية القانون،

وَطَبْعاً لن ينال عقابه، إلاّ طبقاً للقواعد والأصول المرعية... *(النعيم)* المتهم يستمر..

نعيم *(لجمهور الصالة)*:

أوَلم أقل لكم.. إنّها نفس اللعبة القديمة.. القضاة هم القضاة.. والمتهم نفس المتهم.. الأشكال تتغير والأدوار ثابتة.. الوطن هو المأساة، والمأساة فيكم أنتم.. مثلما كنتم منذ عشرات السنين وتجلسون في مقاعدكم، ودائماً تطأطئون رؤوسكم، وتهزونها في عجز وانكسار.. *(بفجيعة)* يا إلهي أولم تعرفوا بعد إنّهم يستندون إلى أحزانكم، فيصبحون أقوياء. ثم يتسلطون عليكم.. وأنّهم ينسون إنّهم خرجوا من بطونكم، وتنسون أنتم.. وتأكل المسافات وجوهكم وأصواتكم، وتبتلعكم رمال الأزمات *(يسقط على ركبتيه)*. اسألوا أنفسهم ولو مرة واحدة، لماذا أنتم محاصرون هكذا؟ ولماذا يتحتم عليكم هذا الغياب.. أنتم الذين رفعتم بأيديكم يوماً ما، سقف هذا الكون.. ولماذا تنهزمون أمام هزائمكم، وتنتصرون حين تشرب خناجركم من صدري؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

(الأصداء تتردد في أرجاء الصالة.. بينما يخفت الضوء.. وتنغلق الستارة رويداً تصعد شريفه، مندفعة إلى خشبة المسرح)

شريفه: انتظروا.. انتظروا.. افتحوا الستارة عن آخرها.. إنّ القضية لم تنته بعد.. *(تشق طريقها وسط الجنديين الملثمين اللذين يحاولان منها)*

اغربا عن وجهي.. أما آن لمثل هذه الوجوه أن يطويها النسيان *(تنحني على نعيم)* أو لم أقل لك إنك لست وحدك ؟

نعيم: وماذا يفيد، إذا قتلوك معي.. يجب أن تبقي.

شريفه: لن أدعهم يذهبون بك *(يحيط به الجنديان)*

نعيم *(وهو ذاهب معهما)*: يجب أن تبقي *(بكاء طفل، صراخ امرأة في القاعة)*

شريفه: لماذا أنتم جامدون ؟؟ تحرّكوا..

عجب *(من القاعة)*: لا يجب أن يذهبوا به..

شريفه: وإلى متى ؟ أو لم تملّوا التفرّج على مأساتكم ؟

فوّاز: نعيم، في هذه المرة أيضاً، يضحّي من أجلنا.

عجب: إذا تركناهم يذهبون به هذه المرة، فلن يعود.

شريفه: إنّه لم يبعد كثيراً.. إنّه وراء هذه الستارة الشّفّافة.. تقدّموا.. اصعدوا.. لا تبقوا جامدين في أماكنكم.

(تختلط الأصوات.. يعمّ الهرج الصالة.. يظلم المسرح رويداً رويداً.. أصوات طلقات رصاص.. أصداء صوت شريفه من بعيد)

بلى.. إنّها مجرد ستارة شفّافة.. ليست صلبة أو سميكة، كما تظنون.. ونعيم واقف بينهم هناك.. كلّهم هناك.. لا تخافوا.. تقدّموا ولا تبقوا هكذا جامدين في أماكنكم.. تقدموا قبل أن يسود الظّلام.. قبل أن يسود الظّلام..

«ستار»